جمهورية العلم والادب

قامت في انكلترا وفرنسا حركة بين بعض العلماء يريدون بها الحطّ من قدر علماء الالمان وما نفوا به الناس وان يخصوهم اشياءهم ويبرهنوا على انهُ ليس في كل ما اخترعوا وما اكتشفوا شيء جديد . ولكن لا يزال فيهم كثير ممن يرى ان هذه الحرب على ما فيها من بغي وعدوان ليس من شأنها ان تحمل الجهلاء فضلاً عن العلماء على قلب وجه الحقائق واظهار الامور بغير مظهرها الصادق كأن يقال ان فلانًا الالماني لم يخترع هذا الاختراع وهو مخترعهُ وانهُ ليس مكتشف هذا الاكتشاف وهو مكتشفهُ . اي ان هناك نخبة كبيرة من علماء الفريقين تريد المحافظة على ما بينها من العلاقات العلمية رغم انقطاع العلاقات السياسية بين دولهم . ومن هذه الفئة الاستاذ هنريك مورف الالماني من اساتذة جامعة برلين . خطب عند ابتداء الفصل المدرسي هذه السنة فقال :

« في صباح اول اغسطس سنة ١٩١٤ خطبت آخر خطبة في تاريخ الآداب الفرنسوية وكان الرجاء في حفظ السلام لم ينقطع تمامًا وكنت من المتفائلين بالخير ولكن مجرى الحوادث جاء مخيبًا لتفاؤلي . فنحن الآن في حالة حرب

« ان تصادم السلاح الهائل هو تصادم بين العقول ايضًا . فمن منّا يستطيع التباهي بانهُ حافظ تمام المحافظة على رباطة جأش ان صحّ ان يسمّى هذا تباهيًا . فان المحايدين انفسهم يميلون الى هذا الفريق دون ذاك روحيًا وادبيًا . والعالم كلهُ مقسوم قسمين كبيرين متعادين ومعظم الجنس اللاتيني اعداء لنا . ويظهر ان الجسور العقلية التي تصل بين الامم تهدمت وبتنا نسمع من ساحلي المرة المترشة بينها تطاعنًا فيحًا بالرأي واللسان قبل تطاعن الاقران . ففي دائرة العلوم والفنون حرب اهلية هي شرّ الحروب التي قامت في جمهورية العلم والادب اللذين يوحّدان الناس في زمان السلم ويجعلان منهم مواطنين ينتمون الى وطن واحد هو العالم كلهُ اجمع

« ولا نبحث هنا في تلك الحرب الاهلية فقد اجتمعنا لغرض علمي لا حربي . ولعلكم تذكرون ان المنشور الذي نشرناهُ نحن معلمي الجامعات الالمانية في جميع انحاء العالم استهلّ بهذه الكلمات « نحن اساتذة الجامعات الالمانية نخدم العلم ونقف نفوسنا على عمل السلام » . والآن وقد رقيت هذا المنبر واغلقت باب هذه الغرفة دون العالم الخارجي لشعّ برجوهنا ساعة عمّا أناخ بكلكله على قلوبنا ليل نهار ولنولّها شطر العلم واهله ولنتصرف بكليتنا الى

العمل العلمي . ولنترك اهواء قلوبنا خلفنا ولا ندخلها هذا المكان ان العلم يطالبنا بالمحافظة على النظام في صفوفنا وبضبط عواطفنا وكبح جماحها . ومن لم يطق ذلك فلا يستطيع ان يخدم غاية العلم او يواصلها بل يبقى غير راض وغير قانع حتى في هذه القاعة التي وقفت لخدمتها

« اريد ان احدثكم عنا بالادب الفرنسوي في الماضي مثلما كنت افعل على الدوام منذ توليت هذا العمل في مدينة برن . ففي ذلك الوقت اشرت الى « غيتي » كما اشير اليه الآن لانهُ علمنا انهُ يمكن الجمع بين الاهتمام بادب الامم اللاتينية والانعطاف اليهِ وبين الحب الشديد للادب التوتوني ادبنا وقد مرت ٣٥ سنة وانا اشرح للشبان الالمان هذه الموضوعات اللاتينية يتنازعني عاملان عامل الاحترام لما هو غريب عنا والحب لما هو لنا ومنا . وقد برهنوا لي على انهم يقدرون عملي هذا حق قدرهِ حتى في هذه الايام الصعبة اذ جاءني كتب من الميدان الغربي كتبها شبان لا أعرفهم شخصياً وقد ذكروا فيها بالشكر الساعات التي قضوها في هذا المكان يدرسون فيها الادب الفرنسوي معي

« لذلك لا ارى داعياً يدعو الى تغيير الصبغة العلمية الصرفة التي طبعت الخطب . فاني اريد تمرين عقولكم كما فعلت حتى الآن على طريقة التفكير العلمية وارشادكم الى ادراك ماضي الامم الغربية عنا ادراكاً تاريخياً خالياً من الغرض والحكم فيهِ حكماً لا تشوبهُ شائبة . وعمل علميٌّ مثل هذا لا يفرق بل يوحد . ويعلم النظر والتأمل لا الاحتقار والامتهان

« اقول هذا القول وشبح معلمي غاستون باريس يتراءى لي فاذكر اوقات الدرس الماضية وايام رفاق مضوا معها ونقترن بهذه الذكرى تذكارات شبابي القديم وتذكارات عهود حديثة قضيتها مع اخوان لي ما كان احلاها واهناها . ولطالما تحدثتم مني اصدقاءهم واخبرتكم بمقدار دين علمنا لهم ومالهم من الفضل والمعروف عليَّ

« ارى خلف العراك الدموي القائم الآن شخص غاستون باريس يناجيني . فاحيي روحهُ من هذا المجلس تحية شاكر ودود . فقد اعترفت امامكم مراراً بما كان لهُ من الاثر الشديد في نفسي واقول الآن ان احسن ما اعطيكم انما هو مستمد منهُ . اسمعوا شيئاً من الكلام الذي افتتح بهِ خطبهُ في « كلية فرنسا » سنة ١٨٧٠ ايام « كانت الجيوش الالمانية تحصر باريس بحلقة من حديد » كما قال وكان ابن ثلاثين سنة حينئذٍ :

لست ارى للوطنية علاقة بالعلم اجمالاً . فان غرفة الخطب العلمية ليست منبراً سياسياً وكل من يستخدمها لمهاجمة ما كان خارجاً عن اختصاصها العقلي المحض او للدفاع عنهُ يحولها عن مجراها الصحيح . اقول بلا قيد ولا تحفظ ان غاية العلم القصوى طلب الحق لنفسهِ بلا

الشفات الى ما ينشأ من الخير او الشر عن اخراجه من القوة الى الفعل ولا الى طبيعة النتائج التي تنتج عن ذلك . وكل من يحبّ الحق ولو ببعض تحفظ ويتلاعب اقل تلاعب في عرض الحقائق التي هي غرض بحثه او في الاقيسة التي يستخرجها منها لا يستحق ان يعطى مكاناً في ذلك العمل العظيم الذي يقدم فيه الصدق والامانة كل التقديم على الحذق والمهارة سواء كانت البواعث التي بعثته على ذلك وطنية او دينية او ادبية

فاذا بنيت الابحاث المشتركة على هذا الاساس واجريت هذا المجرى في جميع البلاد المتمدنة تكوّن منها وطن مشترك يسمو على تخوم الامم المتعادية وحدودها فلا تدنسهُ حرب ولا يهددهُ الغزاة الفاتحون . وتجد فيه العقول ملجأها وواسطة عقدها . انتهى

« هذا ما قالهُ عالم فرنسوي شابٌّ ووطني فحّ في سنة ١٨٧٠ . ولست اعلم هل قام في باريس من يقول مثل هذا القول الآن . وسيبدي لنا الايام ذلك . ولكني اريد ان اذكركم اليوم كلمات هذا الرجل القدير الكبير النفس الذي ضمّ بين جوانحه حبّ بلاده وحب الحق . عسى الله ان يكون كلامهُ هذا قد لقي قلوباً واعية وصدوراً ذات زرع فلا يذهب نفخة في رماد او صرخة في واد »

جميل انكلترا على فرنسا

اذا كان لفرنسا جميل على انكلترا بتحريرها من قيود شعب فظ سفاح فلانكلترا جميل على فرنسا ببث روح الانسانية الصحيحة التي يتحلى بها الشعب الفرنسوي واعني بها محبة الامم الغريبة والتفاهم معها واكتساب ثقتها لان فرنسا في القرن الثامن عشر كانت منعزلة عن بقية الامم ولا اختلاط لها الا بالامة الانكليزية . ولا بدع اذا قلنا ان الجهاد العظيم الذي جاهدتهُ فرنسا في ذلك العصر لاكتساب الحرية وكسر قيود الاستبداد وقام عليهِ مجدها ومفاخرها يعود معظم الفضل فيهِ الى التأثير الحسن الانكليزي في الامة الفرنسوية

(١) تكوين القرائح

ان نسخ منشور نانت[1] دعا الى مهاجرة الوف من خيار الفرنسويين الى بريطانيا العظمى لان كثيرين من الهوغونوت[2] المتنورين لجأوا اليها ليتنشقوا فيها نسيم الحرية ويذوقوا ثمارها ولم يكونوا قبل ذلك يعرفون عنها شيئاً الاّ بالسماع ولا يسمعون عنها الاّ ما كان رديئاً

(١) هو امر اصدرهُ هنري الرابع ونسخ فيهِ البروتستانت حريتهم الدينية سنة ١٥٩٨ فنقضهُ لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ (٢) هم طائفة من البروتستانت اتباع كلفن